حيوانات وردت في آيات

(٤)

حَيَّة مُوسَى

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

حية موسى. -ط٢. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٣٦ ص ؛ ١٧×٢٢سم (حيوانات وردت في آيات؛ ٤)

ردمك: ٥-٩٣٢-٤٠-٩٩٦٠

١-قصص القرآن. ٢- قصص الأطفال. أ - العنوان

ب- السلسلة

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٨٦٥

ردمك: ٥-٩٣٢-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٦٥

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ
أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ
أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

[طه : ١٧ - ٢٠]

كانَتْ مصرُ القديمةُ - مثلَ الحَضَارات القَديمة الأخرَى التي عاصرَتها - ذاتَ عقائدَ مختلفَة، وكانَ فرْعَوْنُ مِصرَ يُنظَرُ إليه علَى أنَّه الإلَهُ الأكبرُ، يَفعلُ ما يشاءُ في رعيَّته.

وربَّمَا وَجَدْنَا بعضًا من الفراعنَة حَباهُمُ اللهُ بالعَقل والتأمُّلَ، فلَم يُعْلنُوا أنفُسَهم آلهةً، لكنَّهم سلَّمُوا بأنَّ هناكَ إلهًا أو آلهةً تحكُم العالمَ، ومن هؤلاء إخناتونُ الذي دعَا إلىَ تَوحيد الآلهَة القَديمة في إلَه واحد، هو آتُونُ، ورمَزَ لَه بالشَّمْس وأشعَّتها النُّورانية.

ونحنُ اليوم فَي زمَن أحَد الفراعنَة، الذي أعلنَ نفسَه إلهًا، يبطشُ بالرعيَّة، ويَطغَى في حُكمه، ويَنشُرُ سُلطانَه علَى الجَميعِ. وكَانَ يَقولُ في كِبرياءَ وغُرُور: أنَا ربُّكُمُ الأعْلَى.

قامَ هَذا الفرعَوْنُ من نَومه يَومًا علَى حُلْم مُزعج مُحيِّر؛ فقدْ رَأى فيمَا يرَى النائمُ أنَّ نارًا عظيمةً أقبلَتْ من بَيت المَقْدس - حيثُ بنُو إسرائيلَ - فأحرقَتْ بيوتَ مصرَ، ومقرَّ فِرعَوْنَ، وأحدثَتْ خرابًا كبيرًا، ولم تُبْقِ علَى أحَدٍ.

قامَ مَـفْزُوعًـا من نَوْمـه، وجَمَعَ كَـهَنَتَه، وطالبَـهم أن يُفسِّـرُوا هذَا الحُلْمَ، فـأجْمَـعُوا علَى أنَّ خطرًا كَـبيـرًا سوفَ يَحلُّ بـالبلاد علَى يَد مَـولُودٍ من بَنِي إسرائيلَ، وسوفَ تكونُ نهايةُ فرْعَوْنَ علَى يَدَيْه.

لَمْ يكُن الفرعَونُ في حـاجَة إلى الْتمَاس أسبَاب جَديدَة ليَـزيدَ من طُغْيَانه وظُلْمه، وإنزَالِ أسْوَأ العَذَاب ببَني إسرائيلَ.

لقَـد أصدَرَ أوامـرَه العليَّة بذَبْح أبنَاء بَنـي إسرائيلَ، والإبقَـاءِ علَى بَناتهم ونِسَائهم.

وَشَهدَت السـاحاتُ والبيُوتُ هَذه المذابحَ العلنيَّـةَ لأطفَالٍ أبرياءَ، لا ذَنْبَ لهُم أمامَ طُغيَان الحاكم إلا أنَّهم ذُكورٌ.

وتضَايقَ الناسُ، ويظلُّ الأمرُ هكَذَا زمنًا، حتَّى توسَّلَ إلَيه كبارُ وكَهَنَةُ بَني إسرائيلَ، وخافُوا على أنفُسهم وعلَى ذُرِّيَّتهم، فسمَحَ فِرعونُ بعَامٍ لا يُقْتَلُ فيه أحدٌ، وعَام يُقْتَلُ فيه الأولادُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ

طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

[القصص: ٤]

فلمَّا جاءَ عامُ الحَياةُ وُلِدَ هارونُ عليه السلامُ، ولَمَّا جاءَ عامُ القَتل وُلِدَ أخُوه مُوسَى.

ولَمَّا أدركَتْ أمُّ موسَى أنَّه وَلَدٌ أخذَتْ تُخْفيه عَن أعْيُنِ الرُّقَباءِ ثَلاثةَ أشْهُرٍ، حتَّى أوشَكَ الأمرُ أنْ يُكْتَشَفَ، فخَافَتْ عَلَيْه.

ثُمَّ أوحَى اللهُ إليهَا أنْ تطلُبَ من أحَد الصُّنَّاع أنْ يصنعَ لهَا صُندوقًا من نَبات البَرْدي على قَدْر جسْم الطِّفْل، ثُم لَفَّتْه في القُطْن، وأغلقَتْ عَلَيه الصندوقَ، وألقَتْه في مَاءِ النِّيلِ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. [القصص: ٧]

أحسَّتْ أمُّ موسَى أنَّ قطْعَةً منْهَا قَد انفصلَتْ عنها، فأخذَتْ تَبكي وتَبْكي، ثُم طَلَبَتْ إلى أخْته مَرْيَمَ أن تُتابعَ الصُّنْدُوقَ حتَّى تعرفَ أينَ سيستقرُّ؟

وتَسُوقُ الأقدارُ الصُّندوقَ إلى قَصْر فرعَوْنَ.

وها هُم خَدَمُ فرعونَ وحُـرَّاسُه يَرَوْنَ الصُّندوقَ يستقرُّ بجـوَار جدَار قَصْر فرعونَ، فيُهْرعونَ إليه مُرْتابينَ مندَهشينَ فَزعينَ.

ويَحْملُه الخدَمُ في حَذَر شَديد إلى فرعَوْنَ وزوجَتـه آسيا، فيأمُرُ فرعَونُ أنْ يُفْتَحَ الـصُّندوقُ، فيُفَـاجَأ بطفْل يَبْكي. صـاحَ فرعَـوْنُ في حُرَّاسـه: كيفَ لَمْ تَذْبَحُوا هذَا الطِّفلَ؟! لِمَ تَرَكْتُمُوه ونَحْنُ في عَام الذَّبْح؟!

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾. [القصص: ٨]

صَـمَتَ الجَمـيعُ من حَـوله، لكنَّ زَوجـةَ فـرْعَوْنَ تقـدَّمَتْ لتَـرَى الطِّفلَ، فأصابَها منْه حنانٌ ومحبَّةٌ. وهُنا قَالتْ لـزَوجها: أقسمُ علَيْكَ بما أستحقُّهُ منكَ من الحُبِّ أنْ تـتـرُكَ هذَا الطِّفلَ لـي؛ فـأنتَ تَدري أنَّني ألِـدُ الإناثَ ولا ألِدُ الذُّكورَ.

صَاحَ فرْعَوْنُ: كيفَ تَطلُبينَ منِّي هذَا وأنْت تَعْلَمينَ مَا أخْشَاه؟!

قـالَتْ: أتوسَّلُ إلَيْكَ أنْ تَدَعَه ولا تَقْـتُلَه؛ فلعلَّه ينفـعُنَا، ولعلَّه يكونُ قُـرَّةَ

عَيْن لي ولَكَ. ألا تَرَى في عينَيْه تلكَ المَلاحةَ، وفي وَجْهه الحُسْنَ؟!

أخذَتْ آسيَا تُقنعُ زَوْجَها بَما تَمْلكُ منْ وسَائل الإقْنَاع، حتَّى وافقَ فرعونُ أنْ يهبَه لَها، علَى أن يَعيشَ في كَنَفِها وتحتَ عَيْنَيْها.

فرحَتْ آسيَا بالطِّفْل، وأحبَّتْه.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾. [القصص: ٩]

وكانَ من عَادة ذلكَ الزَّمان أن يُعطَى الأطفالُ لمُرضعَات يَقُمْنَ بإرضَاعهم مدَّةَ طُفولَتهم. ولهذَا استقدَمَتْ آسيَا أشهَرَ المرضعَات لعلَّه يقبَلُ أن يرضعَ من إحداهُنَّ، لكنَّه لَمْ يقبلْ أيةَ مُرضعَة، وأخَذَ يَبكي.

قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾. [القصص: ١٢]

وحَارَتْ آسيَا في أمر الطِّفْل، وأزعَجَها بُكاؤُه المستمرُّ ورَفضُه المرضعَات.

ماذَا تفعلُ وهيَ تَخْشَى علَى حَياته، وتحبُّ أنْ يَعيشَ الطِّفلُ لَها؟!

وكانَتْ أختُه مريَمُ يصلُ إليها ما يحدثُ في قَصرِ فرعونَ، كَمَا علمَتْ

كَيفَ أنَّ آسيَا حائرةٌ في أمْر الطِّفْل الصَّغير.

وأقبلَتْ مريمُ تستأذنُ في الدُّخول إلى زَوْجَة فرْعَونَ، وأخبرَتْها أنَّها تعرفُ مرضعةً لَن يرفضَ الطِّفلُ لهَا لبنًا، فأمرَتْها بإحضَارهَا بسُرعَة.

انطلقَتْ مَريمُ تُخبرُ أمَّها، وعلَى الفَورُ صَحبَتْها إلى قَصْر فرعونَ، وما إن احتضَنَتْ ولدَها حتَّى كفَّ عَن البُكاء، وأخذَ يَرضعُ حتَّى شبعَ، ثمَّ نامَ.

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [القصص: ١٢، ١٣]

كانَ هذَا هُو المشهدَ الأولَ الذي وضعَ نقطةَ البدايَة في حَياةِ هَذا النَّبيِّ الكَريم.

وتمرُّ الأيَّامُ وفرعونُ يزدادُ طُغْيانًا وظُلْمًا، ومُوسَى يَشبُّ في كَنَفه، حتَّى أصبحَ فتًى قويًا آتاه الله الحكمة والعلم، لكنَّه كانَ دائمَ الاحتجَاج علَى ما يفعلُه فرعونُ.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

[القصص: ١٤، ١٥]

وقرَّرَ موسَى الفتَى أن يكونَ نصيرَ المَظْلُومينَ من بَني إسرائيلَ.

وهَا هُو يجدُ نفسَه في أحَد الأيَّام أمامَ رجُلَيْن يتشاجَران. أحدُهما من أصحَابِ القُوَّة والسُّلطان، والآخَرُ من بَني إسرائيلَ.

ويَستنجدُ المظلومُ بموسَى، فيقبلُ موسَى، ويَضربُ صاحبَ القُوَّة والسُّلطانِ. وكانَتْ ضربةً قويةً أودَتْ بحيَاته. فندمَ موسَى علَى ذلكَ واستغفرَ اللهَ علَى ذَنبه.

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ

﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾. [القصص: ١٥ - ١٩]

ويصلُ الخبرُ إلى قَصرِ فِرعَوْنَ.

موسَى الذي تربَّى في كنَفِ فرعونَ يناصرُ بَني إسرائيلَ على أتْبَاعِ فرعَونَ!

ويأمرُ فرعونُ عَسَسَه وشرطَتَه بالبَحْث عَن موسَى لينالَ عقَابَه.

ويُسرعُ إلى موسَى رجلٌ صالحٌ يخبرُه بما يَنويه فرعَوْنُ، وينصحُه بالهَرَب من وَجْهه.

ويخرجُ موسَى من مصْرَ سرّاً، قاصداً بلادَ مَدْيَنَ - بينَ الشَّام والحجَاز - ويُدْركُ أنَّه لا يملكُ مالاً ولا عملاً.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن

يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ . [القصص: ٢٠ - ٢٢]

ويَصلُ إلى مَكان مُـزْدَحم، ويَعْـرفُ أنَّه مَـوردُ مَـاء، يزدحِمُ عَلَيْـه الناسُ للسِّقاء.

وها هوَ يَرى امرأتَيْن تستَحيَان أن تُزاحـمَا الرِّجالَ، فسَاعَدَهُما على ذلكَ، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ . [القصص: ٢٤] فتخبرَان أباهُما عَن موسَى. ويَسْتَدعيه الأبُ، ويزوِّجُه إحْدَاهُما، ويمنَحُه عمَلاً لَدَيْه.

ويظلُّ موسَى في عَمَله لدَى هذا الرجُلِ عَشْرَ سنينَ كامـلةً، كانَ فيهَا مثلاً للأمانَة والعَمَل والقُوَّة والوَفَاء.

ثمَّ يستأذنُ موسَى في الرَّحيل إلى مصرَ هُو وزوجتُه.

ويخـرجُ موسَى، لكنَّـه يضلُّ طَريقَه ليـجـدَ نفسَـه بجَـانب الطُّورِ، وهُناك أوحَى اللهُ إلَيْه:

﴿... أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

ويخصُّه اللـهُ برسَالته إلى فرعَوْنَ وقَـومه، ثُم يَسْأَلُه اللهُ تعـالَى عَن عصَاه التي يُمسكُها بيَمينه، فيُجيبُه مُوسَى في بسَاطةٍ:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

فأمرَهُ اللهُ أن يُلقيَها من يَده، فإذَا هيَ حيةٌ تَسْعَى.

ويُصيبُ مـوسَى الذُّعرُ والخَوْف، فيطَمـئنهُ اللهُ تعالَى، ويأمُرُه أنْ يلتَـقطَها من الأرْض، فيلتقطُها، لتَعودَ سيرتَها الأولَى، العَصَا نفسَها.

ويُدركُ موسَى أنَّ عصَاه هيَ معجزتُه الإلهـيَّةُ أمامَ قُوى السِّحرِ والشَّعوذةِ علَى أيدي أتبَاع فرعونَ من كَهَنةٍ وسَحَرَةٍ.

ثُمَّ يأمُرُه اللهُ أنْ يُدخلَ يدَه إلى جَيْبه ويُخـرجَها، فإذَا هيَ بيضاءُ تُشعُّ نُورًا قَويّا، فيدركُ أنَّها معجزةٌ أخرَى في عَصـرٍ تتسابقُ فيه المعجزاتُ بينَ التَّصْديقِ والتَّكذيب، لكنْ شتَّانَ بينَ مُعْجزةِ الله تَعالَى وأكَاذيبِ البشَرِ.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا

فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

[طه: ١٧ - ٢٢]

يدركُ موسَى أنَّ أمامَه مهمةً شاقَّةً تتطلَّبُ منه الاستعدادَ الأقصَى من القُوَّة والفصَاحَة والإيمانِ.

أمرَهُ اللهُ أنْ يذهبَ إلى فرعـونَ، فيسألُ موسَى الـلهَ تعالَى أن يَكُونَ أخُوه هارُونُ مَعَه، فيباركُ اللهُ طلبَه، ويأمُرُه بالتحدُّثِ إلى فِرْعَوْنَ باللِّينِ والهُدوءِ.

ويَلْتَقي موسَى أخَاه هَارونَ.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ . [طه: ٢٥ - ٣٥]

أمَّا لماذَا أمرَ اللهُ بالحَـديث إلى فرعونَ باللِّين فقَدْ شـاءَ اللهُ تَعالىَ أن يُعلِّمَ البشريَّةَ دَرسًـا خالدًا في الوفَاء؛ فقدْ ربَّى فـرعونُ موسَى في بيتِـه، فعلَيه حقٌّ

الوَفَاءِ، ومُلايَنةِ القَوْلِ، ورقَّةِ المُعَامَلةِ.

وفي ذلك درسٌ آخر، وهو أنكَ إذا أردتَ دعوةَ إنسان إلى الله ـ تعالى ـ أو نصيحتَه فلابدَّ أن تبدأَ معه بالقولِ اللَّيِّن والنصيحةِ الطيِّبةِ لا بالجفاءِ والشدة والعنفِ حتى لا ينفرَ من النصيحةِ.

لقد وعى موسى ـ عليه السلام ـ القضيةَ وعلمَ حجمَ المهمَّةِ وخطورتَها، لكن اللهَ ربطَ على قلبه وأخبرهُ أنَّ فرعونَ لن يستطيعَ أن يضرَّكَ بشيء، وأنك وأتباعك الغالبون ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾. [القصص: ٣٥]

ويَذهبانِ يَطرُقانِ قَصرَ فرعونَ، فيخرجُ إليهمَا حارسُ القَصرِ.

ماذا تُريدان؟

قالا: نريدُ فرعونَ مصرَ.

قالَ الحارسُ: ماذَا تُريدَان منْه؟

قالَ موسَى: قُلْ لَهْ أنَا رسولُ ربِّ العَالمينَ.

فزَجَرَهُمَا الحارسُ، وعَاوَدَا الأمرَ مرةً ومرةً، حتَّى غَامَرَ الحارسُ، ودَخلَ علَى فرعَونَ، وقالَ:

يا مَوْلايَ، هناك رَجُلان مُصابَان بالجُنُونِ يُلحَّانِ في الدُّخُولِ إلَيكَ، وإخْبَارِك أنَّهُما مُرسَلانِ من ربِّ العَالَمِينَ.

وهُنَا ضَحكَ فرعونُ، وقالَ لوزَيره هَامَانَ:

أتعرفُونَ ربّا غَيْرِي؟!

قالَ هَامَانُ: لَيْسَ لنَا رَبٌّ غيرُكَ يا مَوْلايَ.

وأشَارَ هامانُ إلى الأعْوَان فسجَدُوا جميعًا خاضعينَ مُعترِفينَ بالألُوهيَّة لَه دُونَ غَيره. ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤]

وهُنَا قالَ فرعونُ:

- ومعَ هَذا يا أعْوَاني، فَلا بَأسَ أنْ نتَسَلَّى بهَذَيْنِ الرَّجُلَين. دَعْهُما يَدْخُلا أيُّها الحارِسُ. ويَدخلُ مُوسَى وهَارونُ إلى فرعوْنَ.

ويعرفُ فرعَوْنُ مُوسَى، فيبادرُه مُعاتبًا:

- ألَمْ تنشَأ في قَصْرِنا يا مُوسَى سِنينَ طويلةً؟! كيفَ إذنْ تَتجَرَّأُ علينَا

وتُنكرُ ألوهَتي؟!

قالَ موسَى: إنْ كُنتَ أنعمتَ عليَّ بشَيء فاللهُ هُوَ صاحبُ النِّعْمةِ عَلَيْكَ وعليَّ، وما أنتَ سوىَ مَلكٍ ظَلمتَ بَني إسرَائيلَ.

وهُنَا غَضبَ فرعونُ وقالَ: لعلَّكَ مطلوبٌ للعقَابِ منذَ قتَلْتَ أحدَ أنْصَارِنا.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. [الشعراء: ١٨ - ٢٢]

قالَ موسَى: فعلتُ ذلكَ، ولَمَّا خِفْتُ بَطْشَكُم بي فَرَرْتُ منكُم، فمنَحَني اللهُ من نعْمَته وفَضْله ورَحْمَته، ووهَبَ لي علْمًا وحكْمَةً، وجَعَلَني من المُرْسَلينَ، وهَأنذَا جئتُ إلَيْك أدعُوكَ إلى عِبَادَة اللَّهِ القَويِّ العَظيمِ.

سألَهُ فرعَونُ وقَد ازدادَ غَضبًا وغَيْظًا:

- ومَا ربُّكَ هَذا الذي تَدْعُونَا إلَيْه؟

قالَ: ربُّ السَّمَواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما، هُوَ ربِّي وربُّكم وربُّ آبَائِكم الأوَّلينَ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. [الشعراء: ٢٣ - ٢٩]

ويَسخَرُ فرعَوْنُ منْ قَوْله، ثُمَّ يَلْتَفتُ إلَى وَزيرِه هَامَان مُتَهَكِّمًا:

- ما رأيُكَ يا هامانُ لو بَنَيْتَ لي صَرْحًا عاليًا أصعَدُ فوقَه لأصِلَ إلى السَّماء، فأرَى إلَهَ مُوسَى هذَا؟!

قالَ هامانُ: لَن تَجدَه يا مَوْلايَ.

قالَ فرعونُ: إذنْ أنتَ مَعي أنَّ موسَى يكذبُ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا

هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . [القصص: ٣٨]

قالَ موسَى: أنَا لا أكذبُ؛ فاللَّهُ حَقٌّ، وهُو خالقُ هذَا الكَوْنِ.

سادَتْ فترةُ صَمْت وهَمْهَمَة، قَطَعَهَا فرعونُ بقَوْله:

سأحاولُ أنْ أصدِّقَكَ يا موسَى، فإنْ كُنْتَ جئتَ بمُعجزَة خَارقةٍ فَأتِ بهَا وإلا كذَّبْنَاكَ.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . [الأعراف: ١٠٦]

قالَ موسَى في تَحَدٍّ: وأنَا لَها يا فرعون.

وتقدَّمَ قليلاً حتَّى بَلغَ وسْطَ القَاعَة، ثمَّ ألْقَى عَصَاه، فإذَا هيَ حيَّةٌ كبيرةٌ تَسْعَى أفزعَتْ فرعَوْنَ نَفْسَه، وأفزعَتْ كُلَّ مَن حضرَ المجلسَ، وجعلَتْ فرعونَ في حَالة من الحَيْرَة والكبريَاء معًا.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ . [الشعراء: ٣٢]

ثُمَّ التقَطَها موسَى فعَادتْ كَما كَانتْ.

واستجمعَ فرعونُ نفسَه، وقالَ: إن كُنْتَ تَتباهَى بسِحْرِك هَذا فلدَيْنا سَحَرةٌ أشدُّ منْكَ، فهلْ لديكَ عَملٌ مُعجزٌ آخَرُ.

﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾. [الشعراء: ٣٤، ٣٥]

أدخَلَ موسَى يدَه في جَيْبِه، ثُم أخرجَها فإذَا هيَ بَيضاءُ تُشعُّ نوراً يكادُ يخطفُ الأبصارَ. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾. [الشعراء: ٣٣]

ولَمْ يُطِقْ فرعَونُ احتمالَ ما يحدُثُ في بَلاطِه، وأمرَ بإخْرَاجِ مُوسَى، ثُم أخذَ يستشيرُ أعوانَه فيُشيرونَ علَيه أنْ يَجمَعُوا كُلَّ سَاحر كَبير في البلاد ليتسَابقُوا معَه في السِّحرْ، ولا بُدَّ أنَّهُم منتصرونَ علَيه بمَا يملكونَ من الخِبرة والسِّحْر. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾. [الشعراء: ٣٥ - ٣٧]

وأُدخِلَ موسَى مرةً أخرَى، ليقولَ لَه فرعونُ:

- سنحدِّدُ معَك مَوعداً تتسابقُ فيه معَ سَحَرَتنا.

قَبلَ موسَى التحدِّيَ، واختارَ يَوْمَ الزِّينةِ، يومَ عيدهمْ، يومَ اجْتمَاع النَّاس؛

حتَّى يَظْهَرَ الحقُّ، ويَزْهَقَ البَاطلُ.

﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ . [طه: ٥٨، ٥٩]

ويُقبلُ السَّحرةُ من الشَّمال والجَنُوب بعصِيِّهم وحِبَالِهم، وكلٌّ منهُم لَه تاريخٌ طويلٌ مَعروفٌ في السِّحْر، وقَد وَثِقَ فرعَوْنُ في قُدْرَاتهم وخبرَتهم، وانتصَارهم علَى موسَى، هذَا الرجُلِ الفَرْدِ الذي لا مُعينَ لَه، أمامَ جمع غَفيرٍ من السَّحَرة الكبَار.

لعلَّها مُبَاراةٌ تستحقُّ أنْ يُقبلَ إلَيْها النَّاسُ من كُلِّ مكَان لكَيْ يتَسلَّوْا ويَسْتَمْتَعُوا بأعْمَال السِّحْر. ذلكَ كانَ ظَنَّ فرعَوْنَ وأتبَاعه، مُبَاراةٌ في اللَّعب وتسليةٌ يُدْركُونَ نهايتَها لصَالحِهم، لا لصَالحِ موسَى. فأيْنَ مُوسَى من السِّحْر؟! وأينَ السِّحْرُ من مُوسَى؟!

أقبلَ النَّاسُ إلى سَاحة العيد يومَ الزِّينة مَدْفُوعينَ بالرَّجَاء في نُصْرة السَّحَرة، لِما رَسخَ في نُفُوسهم من عَقيدَة الضَّلال والجَهَالة وسُوء التَّقْدير.

وهَؤُلاء السَّحَرةُ قَدْ أقبَلُوا يدخُلُونَ من بَاب السَّاحة في أزيَائهم الزَّاهيَة،

يتملَّكُهم الغُرورُ والإعْجَابُ بأنفُسهم، ويتلقَّوْنَ هتَافَ الجَميع وتَشجيعَهم.

وهذَا مُوسَى يدخُلُ فَـرْدًا، يتركُ أخَاه علَى مَرْمَى بَصَـرٍ منه يشُدُّ من أزْرِه، فيلقَى السُّخْريةَ والصِّراخَ، ورُبَّمَا قَذَفُوه بالحصَى والحجَارة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ . [طه: ٦٠]

ويشيرُ فرعَوْنُ إلى النَّاس بالصَّمْت. ويتقدَّمُ كَبيرُ السَّحَرة إلى مَوْلاه قائلاً:

- بماذَا يَعِدُنا مَولاَنَا لَو غلبْنَا موسَى وانتصَرْنَا عليه؟

قالَ فـرعَوْنُ: لكُم أجرٌ كَـبيرٌ، وقُـربَى أكْثَرُ، ونعْـمَةٌ لا تُقَدَّرُ، ورَفَـاهيَةٌ لا تُوصَفُ.

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ . [الأعراف: ١١٣، ١١٤]

وترددَتْ أصْداءُ هَذه الوُعُود في نُفُوس السَّحَـرة، فلعبتْ برؤُوسهم أكثرَ من فِعْل السِّـحْر، ثم تشاوروا بينهمْ يشدُّ بعـضُهم أزر بعض ومعهـم فرعون فقالوا: ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ

مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣ - ٦٤] .

ثُمَّ تقدَّمَ كبيرُ السَّحَرة إلى مُوسَى في سُخريَة وغُرُورٍ يَسْأَلُه:

- أتريدُ أن تُلْقيَ عَصَاكَ أولاً أَمْ نُلْقي نَحْنُ؟

سَمعَ مُوسَى هذَا الكَلامَ فلَمْ يهتَزَّ، بَل طلبَ في هُدُوء أن يَبْدَؤوا هُمْ بإلْقَاءِ عِصيِّهِمْ وحبَالهمْ.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ . [طه: ٦٥، ٦٦]

وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ . [الشعراء: ٤٤]

ويتصَايَحُ الناسُ الذينَ وَقفُوا يُشَاهدُونَ المُبَاراةَ غيرَ المتكَافئة. وها هَو كَبيرُ السَّحَرَة يُشيرُ إلى أعْوَانه، فيُلْقُونَ جميعًا مَا بأيْديهمْ علَى الأرْضِ، فيَتوهَّمُ مُوسَى أنَّها حَيَّاتٌ تَسعَى.

ويُوحي اللهُ إلى موسَى أن لا تَخَفْ يا مُوسَى؛ فأنتَ الفَائزُ عَلَيهم جَميعًا، وألْقِ عَصَاكَ.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. [طه: ٦٧ - ٦٩]

وقال لهم موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. [يونس: ٨١]

ألقَى موسَى عَصَاه فتحولَّتْ إلى حَيَّة ضَخْمة كَبيرة تلتهمُ كُلَّ ما ألقَى السَّحَرةُ من العصيِّ والحبَال في سُرْعة خَاطفَة، ثُمَّ أخذَتْ تَدُورُ في السَّاحة مثيرةً الرُّعبَ في قُلوب الجَميع، ثُمَّ أقبلَتْ على موسَى، فمَدَّ إليها يَمينَه، فعادَتْ كَما كَانتْ عصًا في يَده.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾. [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢]

تَمَّ كلُّ هَذا في لحَظات خَاطفَة كَأنَّها الحُلُمُ. أمَّا السَّحَرَةُ فقَدْ هَالَتْهُم

المفاجَـأةُ، وحَلَّ بهِمُ الصَّغَـارُ والهَزيمةُ والهَوانُ، وأدْرَكُـوا أنَّ مَا فـعَلَه موسَى ليسَ من صُنْع البَشَر؛ فهُم يعرفونَ جيِّدًا حُدودَ البَشَر. وكَانَ لا بُدَّ أنْ يُسلِّمُوا لموسَى بالفَـوْز، فأقـبَلُوا بينَ يَدَيْه سَاجِـدينَ للَّه تَعالىَ مُـعْتَـرِفينَ لَه بالوَلاء لما يَدْعُو إلَيه.

وأمَّا المُشَاهدونَ من النَّاس فقَد ألجَـمَهُمُ الصَّمْتُ، فمنهُم مَن آمَنَ بموسَى، ومنْهُم مَن خافَ انتقَامَ فرْعَوْنَ فهَربَ من السَّاحة، لا يعودُ إلَيْها ثانيةً.

وأمَّا فرعَوْنَ فـقَد ثارَتْ نارُ الحقْد في قَلبه، وكَبُـرَ علَيه أن يَفلتَ الأمْرُ من بَين يَدَيْه، فصَاحَ في السَّحَـرة: أتُؤمِنونَ بِربِّ موسَى وتسجُدُونَ لَه، تُعلنونَ له الوَلاءَ قبلَ أن أعْطيَكُم الإذنَ؟!

آه! لقَـدْ أدركْتُ الآنَ كيفَ كُنتُـم خَائنينَ! لقَـد اتَّفَـقْتُم قـبلَ أنْ تَأتُوا إلى السَّاحَة على هَذه النَّتيجَة، ودَبَّرْتُم معَه كُلَّ شَيْء. إنَّه مُعلِّمُكم وكَبيرُكم الذي علَّمَكُم السِّحْرَ.

والآنَ ما دُمتُم خَرجْتُم علَى طاعَتي فسَآمُرُ أنْ تقطَّعَ أيديكُم وأرجُلُكم من خِلافٍ، وسآمُرُ بتَعْليقكُم في جُذُوع النَّخيلِ عِقابًا لكُم؛ لأنَّكُم كَفَرْتُم بنِعْمَتي

علَيكُم، وفَضَّلْتُم مُوسَى علَى إلَهكُم.

قال فـرعون: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. [طه: ٧١]

لقد استعملَ معهم أساليبَ الطغاة بالبطش والتنكيلِ والتعذيبِ ولكنَّ الإيمانَ إذا خالطتْ بشاشتُه القلوبَ يصبحُ الموتُ والحياةُ عندها سواءٌ؛ لذلك أجابوا والإيمان يملأ قلوبهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. [طه: ٧٢، ٧٣]

أي أنَّ اللهَ خيرٌ منكَ يا فـرعونُ، فصبَّ عليهم فرعون اللعين جَامَ غضبه فقتل منهم من قتل، ولاحقَ وشردَ الباقين، لقد كانوا في أول النهار سحرةً وفي آخره شهداءَ بررة.

وخافَ علَى نَفْسه مَن خَافَ، وتَمَسَّكَ بإيمَانه مَن تمسَّكَ.

ويزدادُ عنادُ فرعَونَ، وتنتشرُ الشّرطةُ فَسَادًا وطُغْيانًا وظُلْمًا وقَتلاً؛ انتقامًا

مِمَّا حدَثَ. ويجتَمعُ حَولَ مُوسَى عَددٌ كَبيرٌ من المُؤمنينَ به، صَابرينَ علَى مَا يُنزِلُه فرعونُ بهم من عَذابٍ وطُغيانٍ.

وكانَتْ بدايةً قويةً لموسَى، استطاعَ بهَا أنْ يَسْتَمرَّ في دَعْوَته إلى الإيمَانِ بقَلْبٍ ثَابتٍ.

لكنَّ فرعونَ لَم يكُن يَشْفيه قَتْلُ أتبَاعِ مُوسَى أو تَشْريدُهم فحَسْب، بلْ باتَ يخطِّطُ للخَلاصِ منْ مُوسَى نَفْسِه.

ويَتوعَّدُهُم مُوسَى بأنَّ اللهَ سَوفَ يُذيقُ فرعونَ وأتباعَه جزاءَ ما كَفَرُوا، ومَا ارتَكبُوا من جَرائمَ، وبمَا أذاقُوا بَني إسرائيلَ من الذُّلِّ والهَوَانِ، واستحيَاءِ النِّساءِ وقَتْلِ الأبنَاءِ.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا

جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ - ١٢٩]

وكَانَ اللهُ لَهُمْ بالمِرْصَادِ.

نَضبَ ماءُ النِّيل وجَفَّ، وأجدَبَت الأرضُ الخَضْراءُ، ونَقصَت الثَّمراتُ والأموالُ، وحلَّ الجُوعُ في كلِّ مكَانٍ، وأفْسَدتِ الضَّفَادِعُ الماء، وامتلأتْ أجسَامُهم بالقُمَّلِ، وزحفَ الجَرادُ علَى كُلِّ شَيءٍ!

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾. [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣]

ويَجيءُ إلى موسَى من قَوْم فرعَونَ مَن يَسألُه أنْ يدعُوَ اللهَ أنْ يكشفَ عنهُم هذاَ البلاءَ، لكنَّ اللهَ كانَ يعلَمُ مدَى نفَاقِهم وعنَادِهم.

ولَمْ يُفِقْ فرعونُ من عِنَاده.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ . [الأعراف: ١٣٤، ١٣٥]

ويعلمُ مُوسَى أنَّ فرعَونَ قَدْ حشدَ رجَالَه وأسلحتَه للتخلُّصِ من مُوسَى ورجاله، فيأمُرُه اللهُ بالخُرُوج من مصْرَ.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ . [الشعراء: ٥٢ - ٥٦]

ويُسرعُ مُوسَى وقومُه متَّجهينَ نَحوَ الشَّرق، وفرعونُ يتعقَّبُهم وكُلُّه ثِقةٌ في اللِّحاق بموسَى، إلى أن وَصلَ موسَى بقَومِه إلى البَحر.

قالُوا: يا كَليمَ اللَّه، العدُوُّ خَلفَنا، والبَحرُ من أمامنَا، فأينَ الهربُ والخَلاصُ.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ . [الشعراء: ٦٠ - ٦٢]

منتهى الثقة بنصر الله والتوكل عليه.

فأوحَى اللهُ إلى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بعصَاكَ البَحرَ.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ . [الشعراء: ٦٣]

تقدَّمَ موسَى، وضربَ البَحرَ بعَصاهُ، وقالَ:

اللَّهمَّ، أنتَ قادرٌ علَى كُلِّ شَيء، تقولُ للشَّيء كُنْ فيكونُ.

فانشقَّ البَحْرُ إلى اثنَيْ عَشَرَ طَريقًا. أسرعَ المؤمنونَ إليهَا، والماءُ علَى الجانبَينِ كأنَّه الجِبالُ الجامدةُ، في مَشْهَدٍ مُعجزٍ، ولَوحَة إلهيَّةٍ رائعةٍ.

ويُسرعُ موسَى وقَومُه في عُبور البَحْر إلى الشَّاطئِ الآخَرِ، ويَصلُ الجميعُ في أمَانٍ إلى الشَّاطئِ المقَابلِ. ويُوحِي اللهُ إلَى مُوسَى أن لا تَضْرِبِ البحرَ بعصَاكَ.

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ . [الشعراء: ٦٥، ٦٦]

وقَفَ مُوسَى مندهشًا، حينمَا رَأى فرعونَ وقَومَه قَد وصَلُوا إلى الشَّاطئِ، ولَو أنَّهُم عَبَرُوا ونَجَحَوا في العُبور لقَضَوا علَيه وعَلى قَومِه.

لكنَّ حكمةَ الله وقُدرَتَه فوقَ كُلِّ شَيء.

صَبَرَ موسَى وقومُه وهم يُشاهدونَ ما يَحدثُ. هاهُو فرعونُ وقومُه يَصلونَ إلى الشَّاطئِ، فيجدُونَ البحْرَ قَد انشقَّ.

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : ٢٤]

وتوقَّفَ القَوْمُ ليُعلنَ فرعَوْنُ في صَلَف وغُرُور: انظرُوا يا قَوْمُ، هذَا هَو البَحرُ ينشَقُّ طَوعًا لأمْري وإرادَتي، حتَّى أُدْرِكَ هَؤلاءِ الخَوَنَةَ فأقتلَهم.

واقتربَ من فرعونَ وزيرهُ هامانُ هامسًا: يا مَولايَ إنِّي قَد أتَيتُ مرارًا إلى هذَا المَوضعَ من البَحر، ولَم يَكُنْ منشقّا هكَذا، وإنِّي أخافُ أنْ يَكونَ ما نَرَاه مَكْرًا من مُوسَى يَكونُ فيه هلاكُنا وهلاكُ جُندِنا.

ضَحكَ فرعَونُ ضحكةً عاليةً، وزجَرَ هَامانَ بيَدِه، ثُمَّ اعتَلَى فَرسَه، وصاحَ: اتبَعُوني أيُّها الجنودُ، اتبَعُوا إلهَكُم.

تَوهَّمَ الجُنودُ أنَّها مُعجزةٌ من مُعجزَات فرعَوْنَ، فاندَفَعُوا وراءَه إلى البَحرِ،

حتَّى وَصَلُوا إلى وَسطه، وهُم في صِيَاح وتَوَعُّدٍ لمُوسَى وقَومِه.

طَمأنَ اللهُ موسَى على مَصيره، فأخذَ مُوسَى يَصيحُ في قَوْمه حتَّى لا يهتزَّ إيمانُهم: يا قومُ، إنَّ اللهَ معَنا. صَبرًا؛ إنَّ اللهَ معَنا؛ صبرًا إنَّ اللهَ معَنا.

نزلَ فرعونُ وقومُه إلى البَحْر جميعًا، وفي طَرْفَة عَين انطبقَ علَيهم المَاءُ من الجَانبَيْن، وتفتَّتَتْ جبالُ الماء التي ظَلَّتْ جَامدةً بَعضَ الوَقت، فأغرَقَتْهم جَميعًا.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ . [طه: ٧٧ - ٧٩]

ولحكْمَة إلهيَّة كَريمة أمَرَ اللهُ البَحْرَ أن يُلقيَ جُثَّةَ فرعَوْنَ علَى السَّاحل؛ حتَّى لا يُحدثَ اختفاؤُه فتنةً بينَ النَّاس، فربَّما ادَّعَى قَومٌ أنَّه يَحْيَا في عَالَمٍ آخَرَ، وربَّمَا رَفَعُوه إلى مَنزلَة الفَاضلينَ أو الشُّهَداء.

فألقَى البَحرُ جثَّته علَى شَاطئه، وأخرسَ اللهُ ألْسنةَ السُّفَهاء حينَمَا نظَرُوا إلى سُلطانِ فرعونَ مُهدَّمًا فَوقَ الرِّمال.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ . [يونس: ٩٠ - ٩٢]

هذه نهاية الطاغية فرعون لقد قال الله فيها: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ . [الدخان: ٢٥ - ٣١]

لقد كانتْ نهايةً عادلةً تليقُ بمقام نبيِّ الله موسى والمسلمين معه، وجزاءً عادلاً للطاغية فرعون، وهذه الآيات الأخيرة قرأها باكياً سعدُ بنُ أبي وقاصٍ ـ رضي الله عنه ـ عندما انتصرَ في معركةِ القادسيةِ ودخلَ مدائنَ كسرى وقصوره.

قصةُ موسى مع فرعونَ ليستْ قصةَ فرد مع طاغيةٍ، بل هي بحقٍّ قصةُ الصراعِ بين الحقِّ والباطل منذ أن خلقَ اللهُ آدم إلى أن تقوم الساعة.

فرعونُ الذي قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. [غافر: ٢٩] فمن كانتْ هذه بدايتهُ كانتْ نهايتهُ كما قال تعالى: ﴿... فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٩]

كانَتْ رحلةُ مُوسَى وقَوْمه من مصرَ وخُروجه منها بدَايةَ عَهد جَديد من الرِّسالة الإلهيَّة، أنزلَ اللهُ ـ سُبحانَه ـ فيه التَّوْراةَ لليَهُود، هَؤُلاء القَوم الذينَ أجهَدُوا موسَى وغيرَه من الأنبيَاء والمُرسَلينَ، وحرَّفُوا في رسَالته؛ حتَّى يُحقِّقُوا أهدافَهم الفَاسدةَ والتي نعاني منها حتَّى اليَومِ.

وبهذَا نَصرَ اللهُ نبيَّه مُوسَى علَى فرعونَ وقَومه، ونَصرَه اللهُ علَى مَكايد قَومه، بالصَّبْرِ والتَّحَمُّلِ، وإرسَاء الإيمَانِ الحقِّ فَوقَ الأرْضِ!

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي

بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]

لقد أكرمَ اللهُ بني إسرائيل لكنهم لم يحفظوا نعمَ الله عليهم، فغضبَ عليهمْ ولعنهمْ وسلبهم نعمَه، وأعطى الكتابَ قوماً آخرين ليحملوا دينه ويبلِّغوه في الأرض، ويقيموا شرعه وهم المسلمون أتباعَ محمد ﷺ.

ونحن يجبُ علينا أن نعتبرَ بهم وبما حلَّ عليهمْ من غضب الله؛ لأنهم ضيعوا دينه فيجبُ علينا أن نتمسكَ بكتابِ ربِّنا وسنةِ نبينا علماً وعملاً ودعوةً إليهما.